حسن فتح الباب في كتابه الجديد

إطلالة على ظاهرة المقاومة والبطولة في الشعر العربي

■ عرض وتلخيص - ايهاب الخضرجي

■ أفرزت الأحداث والآلام العميقة التي يمر بها مسلمو البلقان بطولات كثيرة لكنها ضاعت وسط الآلام، وشكلت ألوانا حديثة من المقاومة لم تشهدها البشرية من قبل، ودفعت هذه الآنات الشاعر حسن فتح الباب - إلى جانب ما كتبه من الأشعار - لتأليف كتاب تناول فيه «المقاومة والبطولة في الشعر العربي» كاشفا عن أسرار هذا الفن أو هذا اللون الذي كان ومازال عميق الأثر في حياة الانسان العربي.

ورغم دموية الحدث وعمق الالم إلا ان فتح الباب بدأ كتابه الذي صدر عن سلسلة كتاب الرياض التي تصدرها مؤسسة اليمامة الصحافية في المملكة العربية السعودية بمقدمة تتدفق تفاؤلا، فهو يرى ان بحار الدم الغزيرة هي التي تنبت الورود في المستقبل، وتنشر عبق الياسمين في ايامنا المظلمة، وتبعث الفجر لينير العالم كله.

شعاب غانم

حسن فتح الباب

الموت مطلب حين تهون الحياة

بدأ الباب كتابه بفصل عن شعر المقاومة والفروسية والجهاد، حيث شرح بمقدرة عالية مرحلة ما قبل الاسلام وتحدث عن شعراء الجاهلية الذين مجدوا الحياة الكريمة التي تستحق ان يدافع عنها المرء، فالموت عندهم - كما قال - حق بل مطلب اذا هانت الحياة، والفروسية شيمة عربية اصيلة استمرت من العصور الوسطى وشهد بها الاوروبيون.

انه يرى ان الفروسية تعني قهر الخوف من الموت في سبيل القيم والمثل العليا، لذلك ادرج شعر الفروسية في عداد شعر المقاومة، لانه يمثل استعانة بعرض الدنيا، واعتزازا بلقاء الموت اذا لم يكن منه بد ما دامت الحياة لاتبقى لاحد، واستشهد بأعمال العديد من الشعراء كطرفة بن العبد، وزهير بن ابي سلمى، ودريد بن الصمة، وعنترة العبسي فارس الشعراء والعشاق.

وانتقل الكاتب في المبحث الثاني الى المقاومة والجهاد في الاسلام، حيث اكد ان الجهاد فريضة في الاسلام وهو تعبير عما يسميه القانون الدولي بالحرب العادلة المشروعة، وهي مقاومة القوة بالقوة بعد ان تتعذر الوسائل الودية السلمية في كبح جماح المعتدي ورده الى جادة الصواب والامتثال لشريعة الحق، ودلل على ذلك بما جاء في القرآن الكريم والاحاديث النبوية الشريفة، وكذلك بكلمات شعراء الدعوة الاسلامية وفي مقدمتهم حسان بن ثابت شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم، وكعب بن زهير شاعر الدعوة الاسلامية، وكعب بن مالك.

وفي المبحث الثالث والرابع والخامس والسادس عرض لشعر المقاومة والبطولة في عهد الخلفاء الراشدين وعصر بني أمية، ثم العباسيين ثم الاندلس، واختتم هذا الفصل بالمقاومة والبطولة والشعر الحديث.

أطفال سراييفو وأشعارها

في الفصل الثاني الذي عنونه الكاتب بـ «شعر المقاومة في مأساة البوسنة والهرسك وملحمتها» أفرد المبحث الاول لمشاهد درامية من وحي المأساة للشاعر المغربي الدكتور حسن الامراني الذي كتب مجموعة من القصائد الدرامية ذات النمط المسرحي بعنوان «جسر على نهر دربنا - ملحمة الاسلام في البوسنة» والتي افتتحها بنداء لأطفال سراييفو:

نحن اطفال سراييفو الشهيدة
ان حرمنا من حنان الامهات
في الليالي الكالحات
فلأنا مسلمون

ويعلق الكاتب على هذه الأشعار بالقول: «وقد استعار الشاعر عنوان قصائده او لوحاته الشعرية من الرواية الشهيرة للكاتب البوسني «ايفو اندريتش» جسر على نهر دربنا التي نشرت في اعقاب الحرب العالمية الثانية العام ١٩٤٥، وكأنه يريد ان يقول ان التاريخ يكرر نفسه ولكن في أشكال جديدة، أما فحواه فهو قضية العدل والجور والمأساة والبطولة.

وبعد أن يورد عددا من النماذج العشرية يقول: «هكذا يتصاعد النغم المأساوي حتى يرد الختام مدويا كأنه النغمة الاخيرة لسيمفونية عاصفة، او الموجات التي تتعالى هادرة بعد انسياب حتى تصير كالجبل يجتاح الفضاء والشطآن، او البركان الذي يدمدم ثم يفور غاضبا عائما حتى لا تقوى على مواجهته قوة على الارض اذ يكتسح كل ما يقف دون امتداده او يحول دون سيطرته».

ويتناول حسن فتح الباب في المبحث الثاني ترنيمة او انشودة الشاعر عبدالله شرف الذي يستلهم رؤيته من قضايا واحداث واقعية، ولكنه يقطرها في بوتقة الرومانسية المنسابة الشفافة كأجنحة الحلم او الطيف.... مقدما قراءته النقدية لها ملقيا الضوء على معانيها، وما يبثه فيها الشاعر من احزانه وما يشعر به من قهر لعجزه عن غوث ابناء البوسنة وأسفه لموقف الشعراء العالمين في وادي الغزل والتشبيب بالمرأة، ونعيه على اولئك الذين حولوا الشعر باسم الحداثة الى الغاز، وهؤلاء اللاهثين خلف الاعيبين والمغنين يرسل الشاعر عبدالله شرف نغمة اخيرة متفائلة.

في المبحث الثالث يقدم الكاتب قصيدة الشاعر الدكتور انس داود حيث يقول، في توقيع مأساوي رقيق ملتمع كحد النصل موجع جارح مثله، يقدم لنا الشاعر الدكتور انس داود وردة من الشعر الانساني ترف نضارة، وان كانت مجللة بالسواد، وتتضح قطرات الندى عليها حزنا عميقا على شعب البوسنة

قولي: من سمانا بشر؟
من أعطانا نور العينين
واحساسا مأساويا
إن ابعدنا عصفورا مذعورا
او غصنا في كف الريح العاصف
يدوي منكسرا؟
من علمنا ان نطلق من حنجرة الاحلام
غناء مبتسما
ان نرقص في اعياد الميلاد
وان نملأ كل مدائننا الموبوءة
في ذكرى اجمل طاقة نور زهراء؟
من علمنا ان نرقب في منتصف الليلة قمرا
وجناح الظلمة ممتد
وفؤاد العالم امسى حجرا؟

ويقول الكاتب، ان ميزة هذه القصيدة انها تحول نثر الحياة اليومية الى لغة شعرية مكثفة منسوجة من واقع العصر، ومن بعض التقنيات الاسلوبية الجمالية التي طور بها الشعر الحر القصيدة العربية القديمة، وهي بذلك اضافة لها قيمتها الى الشعر الواقعي المأساوي، وان كانت قد افادت من الرفرفة الرومانسية لغة وصورة، وايقاعها العروضي مناسب للجو الذي تصوره، مع براعة في توظيف القافية الواحدة في نهاية كل مقطع، وهي قافية تحدث رنينا ذا صدى يشي بوقع المأساة.

المبحث الرابع يقدم فيه الكاتب قصيدة «طفل الاشواق» للشاعر ابراهيم عيسى التي تتميز بجدة الرؤية، اذ قدم صورة كلية غير مسبوقة تتخللها صور جزئية جديدة ايضا، واجاد في السرد ورسم المشاهد التي تتكون منها القصيدة المتشحة بمسحة قصصية اضفت عليها سمة التشويق لمتابعتها والاثارة بمكنونها.

ويخصص حسن فتح الباب المبحث الخامس لبكائية الشاعر احمد سويلم التي كتبها الى شهداء العقيدة الذين يستشهدون في فلسطين، وسراييفو، وافغانستان، وفي كل مكان في العالم.

وعنها يقول: «على الرغم من تسمية احمد سويلم قصيدته «بكائية» فانها لاتستدر الدموع على الضحايا بقدر ما تثير السخرية التي تبلغ حد الاشمئزاز من شهود الجريمة الصامتين على اختلاف مواقعهم. فالقصيدة من ادب التحريض والمقاومة الذي يعتمد اسلوبا قوامه ابراز التناقض ورسم الصورة التي تفضح المواقف التي يدينها ضمير الاحرار، وينبذ المباشرة والسرد التقليدي التقريري.

ثم ينتقل الكاتب الى الشاعر رشاد يوسف في المبحث السادس وهو من الشعراء المصريين الملتزمين في انتاجهم بالقضايا الاسلامية والتغني بمجد الاسلام وما ارساه من قيم ومثل انسانية وقواعد حضارية قامت عليها صروح العلم والمعرفة، وفتحت للبشرية آفاقا واسعة للتقدم قارنا قصيدته «مذبحة المآذن» التي يمزج فيها الشاعر بين الواقع بأحداثه الدامية المروعة وبين الماضي البعيد والقريب حينما ذبح المسلمون في الاندلس واستباحت الارض الفلسطينية في ظل التواطؤ الاجنبي المريب، والتقاعس العربي الاسلامي.

اثر ذلك ينتقل الباب الى عالم الشاعر خالد الحليبي من الرياض بصوته الحزين الملتاع الجياش العاطفة في قصيدته «بركان.. صرخات في اذني قطار الحافلات التي تقل اطفال البوسنة الى انحاء اوروبا». ثم قصيدة الشاعر شهاب غانم «فصل من مسرح اللامعقول» والتي تمتاز بالنبرة التهكمية مما يخلع عليها سمة الجدة ويجعلها قصيدة تبطنها السخرية أكثر من البكائية.

وفي قراءته النقدية للقصيدة قال الباب، ان الشاعر شهاب غانم يستلهم افكار شعره من الصراع الذي يعيشه، ويعيشه العالم المعاصر على جميع مستوياته، لكنه يغوص الى اعمق الاعماق في الدائرة الاسلامية سواء محليا او عالميا، ولم لا وقد اقيمت في عصرنا اعظم مذبحة للمسلمين في البلقان، ووقعت المذبحة تحت سمع العالم الاسلامي وبصره، فلم تتدخل يد لمعاونة المسلمين، ولو من باب الدفاع الشرعي عن انفسهم.

في هذي الأرض المنسية
في أوطان العرب الأقحاح
ينقلب الناس الى اشباح
وهياكل عظم بشرية
تكاد تسير بلا ارواح
تترنح حتى تسقط ملوية
وجواليها صبح مساء
تتأرجح داحس والغبراء
وتقول وكالات الانباء:
«في شهر او شهرين
سيبيد الجوع حوالي مليونين»

ويومئ شهاب غانم والكلام للباب الى المعيار المزدوج الذي تطبقه الدول الكبرى في القضايا المثارة في العالم انطلاقا من مبدئها البرجماتي الميكافيلي وهو تحقيق مصالحها بغض النظر عن المبادئ التي تعلنها.

ان كتاب حسن فتح الباب «المقاومة والبطولة في الشعر العربي» كتاب ثري بكل المعاني، وممتع، وما استطعنا ان نقدمه - في هذه العجالة - لا يمثل سوى القليل جدا مما قدمه الكاتب، كما اننا لم نتمكن من الحديث عن قصائد لشعراء عظماء مثل الشاعر محمد عبدالقادر الفقي، والداعية الكبير الدكتور يوسف القرضاوي والشاعر الشيخ المرحوم ابوزيد ابراهيم، فالكتاب ضخم ضم اكثر من ٣٤٠ صفحة، وضم عشرات الشعراء في عصور شتى بما فيها عصرنا الحالي، عصر اضطهاد الاقليات المسلمة.

غلاف الكتاب

درس اليابان في الأصالة والحداثة

علي كنعان

■ كيف استطاع الشعب الياباني أن يحافظ على تقاليده وهو يتقدم صعداً الى أعلى مراتب العلم والتكنولوجيا في عصرنا؟ وكيف يجمع بين الأصالة وأرقى مراحل الحداثة، بلا معارك ولا اتهامات ولا ردود فعل انفجارية؟ كيف يتجاور البحث والاختبار في هندسة الوراثة وعلم الجينات مع الملايين المحتشدة في المعابد؟ وكيف تستمر هذه العلاقة الحميمة في المعايشة اليومية بين الأجداد والأحفاد؟ وفي المقابل، تبرز أسئلة وتساؤلات موازية، لماذا نرى عدداً من مجتمعاتنا العربية تتخلى عن قيم الآباء والأمهات وتطرح جانبا تقاليد الجدود، ولم تستطع أن تبني قيما حضارية بديلة؟

في رأيي، إن غياب الحرية أو تغييبها هو السبب والأساس والمنطلق، بدءا من البيت والحضانة والمدرسة وحتى أكبر المؤسسات وأرقى المعاهد الأكاديمية، وفي غياب الحرية، نفتقد نغمة التسامح. إننا لا نرى من الألوان إلا الأبيض والأسود.. ثم الرمادي في أحسن الأحوال! أما ألوان الطيف الأخرى من تحت الأحمر الى ما فوق البنفسجي فنحن نتغاضى عن رؤيتها أو نزعم أنها غير موجودة.

هذا التطرف في رؤية الأشياء وادراكها وتقييمها هو أقصر السبل وأيسرها، انه لا يحتاج الى تفكير أو جهد. يكفي أن تقول، نعم أو لا، بلا تعب ولا تأمل ولا مقارنة ولا رغبة في الاختيار أو المناقشة الحرة.

عديد من الطلبة اليابانيين الذين يعيشون بعيداً عن بيوت الأهل، حين أسألهم مع من يعيشون، كان واحدهم يجيب، مع جدي أو جدتي. الآباء والأمهات مشغولون في أعمالهم، أما الأجداد والجدات فقد أحيلوا الى التقاعد وتفرغوا للحياة وللعناية بالصغار - وإن كان هؤلاء «الصغار» طلاباً في الدراسات العليا.

مسألة الجدال بين القديم والجديد لا تشغل بالهم ولا تستحق اضاعة الوقت. إن لكل جيل حياته، وهو حامل همومها، المواجه لمشكلاتها، والمنعم بالأحلام لحلها أو تخطيها، ومع ذلك، لا شجرة بلا جذور، والأجيال الشابة لا تدعو الى قطيعة مع التراث والأصالة، لكنها لا تحبس نفسها داخل أسوارها ولا تستطيب النوم في كهوفها الرطبة.

ومع ذلك، تعجب كيف تعيش الأسطورة أو الخرافة الى جانب العلم. في البيت يسرد الكبار على الصغار نتفا من تجارب حياتهم وألوانا من تقاليد مجتمعهم، وفي المدرسة يتعلم الصغار وفق أحدث الأساليب العلمية. ولا يشعرون بالتناقض بين البيت والمدرسة. هذا عالم وذلك عالم آخر. وحين يكبر الطالب ويستوي عوده ويبلغ الرشاد، يغدو من حقه أن يختار طريقه بنفسه، بعيداً عن العقد والرواسب وقناطير الأوامر والنواهي.

والتربية عندهم تبدأ من الجنين، وعلى المرأة الحامل أن تبدأ بتعليم صغيرها قبل ان يخرج الى الحياة، عليها أن تستمع للأصوات الجميلة والموسيقى الهادئة العذبة ليأتي مرهف السمع، وعليها أن تتجنب المشاهد المؤذية وأن تتأمل المناظر الجميلة واللوحات الفنية الرائعة، وعليها أن تقرأ الأدب العظيم لتترك التأثير المرجو منه. إن أكل الأخطبوط أو الحبار يمكن أن يؤدي الى ولادة طفل بلا عظام، كما أن تناول الأرنب له محظوراته أثناء الحمل، ورؤية النار قد تجلب علامة (الوحمة) في جسد الطفل.. وهكذا تمضي النصائح المتوارثة. لكن المرأة الشابة حرة في اختيارها، فمن حقها أن تأخذ بها ومن حقها أن ترفضها بلا حرج أو رهبة.

هناك مشكلة المولودين تحت برج الحصان الناري، وهي مشكلة ما تزال ماثلة في الأذهان والسلوك بين عدد غير قليل من الناس، والحصان الناري، حسب الدورة الفلكية الصينية، يأتي كل ستين سنة. ان السنة ١٩٦٦ كانت من برج الحصان الناري، كما ان السنة ٢٠٢٦ ستكون كذلك.

إن كثيراً من الأزواج لا يمكن أن ينسوا تاريخ هذا البرج الخطير، لذلك تحاول الزوجات تجنب الحمل أو الولادة في تلك السنة المشؤومة. ويقال ان معظم الشعوب في جنوب شرق آسيا ما تزال واقعة تحت تأثير ذلك الاعتقاد. ومع أن الأبراج اليابانية جاءت من البر الصيني، إلا أن الحصان الناري ليس له في الصين ذلك التأثير الأسطوري المخيف.

أجيال الشباب لا يعنيها الموضوع كثيراً، وربما لأنه ما يزال بعيداً. إنهم يفكرون بمستقبلهم ويشغلهم الحاضر وتوجهاته القادمة أكثر مما يشغلهم الماضي. والتيار الحي الكامن في التراث، والمتسلسل من الماضي الى المستقبل، اذا لم يكن عامل اغناء وحيوية وبناء وتقدم فان اهماله خير من التمسك به. وهكذا ينطلقون في دروب الحياة والازدهار.

ورغم التقدم المذهل في العلم والتكنولوجيا، فان المساواة بين الرجل والمرأة لم تصدر بقانون حتى العام ١٩٨٦. لكن عديداً من الشركات الخاصة لا يلتزم بذلك القانون. لقد وصلت المرأة اليابانية الى الفضاء، ولها دورها في تسلق الجبال ودخلت البرلمان واحتلت مناصب في قيادة الأحزاب والحكومة، لكن ذلك كله لم يسهم في نسف العادات والتقاليد المتوارثة في المجتمع.

إن روح الحرية والتسامح تترك للتقاليد مجالها وللعلوم مجالها، ولا ضرورة للصراع والاتهام والتخوين. وهناك وقائع شتى أثارت بعض الاحتكاك والمواجهة بين العلم والأسطورة، لكن العواقب كانت سليمة دائماً، وهي قابلة